من ذكريات رمضان.. بين الشك واليقين..

د. سيد نوفل

أكتوبر

تحفل هذه الأيام بتطورات دولية وإقليمية واسعة المدى.. وكان المعنى السياسى لجنازة اوهيرا القريبة فى طوكيو مكملا للمعنى السياسى لجنازة تيتو السابقة فى بلجراد.. ففى بلجراد ظهر التباعد الأمريكى – الأوروبى الغربى. وحضر بريجينيف ولم يحضر كارتر. كما حضر ديستان وشميدت وتاتشر. وساءهم – حرصا على الوفاق الدولى – غياب الرئيس الأمريكى.. وفى طوكيو ظهر الحلف الجديد: الأمريكى الصينى اليابانى. وحضر كارتر ولم يحضر بريجينيف. وتم اللقاء التاريخى بين الرئيس الأمريكى والرئيس الصينى: هوا كوفنج. وظهر التخطيط المشترك فى معركة تايلاند مثلما ظهر قبلا فى معركة أفغانستان.. وأصبحت دعوة التفوق العسكرى الأمريكى تسود الولايات المتحدة.. والتزم بها كذلك الجمهوريون بزعامة ريجان. متخلين عن التزامهم التقليدى بالحفاظ على التوازن العسكرى بين القوتين الكبريين.. ومن ناحية أخرى مضى التقارب السوفيتى الهندى فى سبيله منذ ولاية إنديرا غاندى..

محمد عبده.. مناقشة رسالة التوحيد.

محمد محمود باشا.. تدبر الاحرار الدستوريون على زعامته

كمال شمعون.. قضى الكتائبيون على جاهته

والصراع بين العراق من ناحية، والتحالف الايرانى السورى الفلسطينى من ناحية أخرى، تتفاقم معاركه فى إيران والعراق ولبنان والكويت والبحرين وغيرها، ويهدد بلاد الخليج العربية أخطر التهديد.

ودور مصر القيادى، فى المنطقة وفى العالم، يزداد قوة وتوثقا. وقد ظهر فى برنامج الحزب الجمهورى الانتخابى، وفى رحلة المرشح المستقل جون اندرسون إلى القاهرة، وفى الصراع الداخلى الإسرائيلى ضد عنت حكومة بيجن وجمودها، وفى المعركة الناشبة بين بيجين ووزير خارجية بريطانيا: كارنجتون.. وقد افتعلت أسباب للفجوة والخلاف مع مصر فى الاجتماعات العربية والإسلامية الأخيرة بعمان.. لكن الحقيقة الكبرى هى أن المجتمعين وقفوا فى الصف المصرى: صف السلام والتنمية، وعزلوا عملاء الاتحاد السوفيتى فى سورية واليمن الجنوبية وليبيا وبين الفلسطينيين. وعارضوا المقترحات السورية الفلسطينية المشتركة. كما أدانت هذه الاجتماعات معارك الحلف السوفيتى السورى ضد البلاد العربية، وفى مقدمتها السعودية والأردن والمغرب.

وتصاعدت النكبات فى لبنان، واكتسح الكتائبيون الساحة المسيحية، وقضوا على نفوذ كميل شمعون وعلى جاهته المستمدة بالوطنيين الأحرار. وتوارت فى الأفق اللبنانى المظلم القريب مخاطر التأسيس الرسمى للدولة المسيحية فى لبنان.. كما تضاءلت المخاطر والظلامات المهددة للكويت والبحرين وسائر منطقة الخليج العربية..

■ وحديث البناء الذاتى المصرى، وهو الدعامة الأساسية للأمن العربى المشترك، يسبق كل حديث.. وقد وعدت فيه باستكمال موضوعين هما موضوع الوحدة الوطنية والانفتاح السياسى، وموضوع الواجبات الملقاة على عاتق السلطة الرابعة: الصحافة فى عهدها المستقل الجديد..

وكل من هذه الموضوعات جميعا يشد الكاتب السياسى إليه، ويستأثر بعنايته.. لكن بعض الأصدقاء الأعزاء طلبوا أن أحدثهم فى خفة عن ذكرياتى فى رمضان.. ولم يكن مناص من إجابة داعيهم، مراعاة لمقتضى حال الصيام.. ومن حق الصائم أن يتأمل الماضى، ويعد نهجا أفضل للمستقبل.. وإنى لأجيب داعيهم إلى ذكريات رمضان.. أما الخفة فمتروك أمرها للقراء ومشاعرهم.. فالكتاب هو الكاتب، والمقال هو القائل.. ولا أدرى إذا كنت خفيفا أو ثقيلا.. على أن الخفة والثقل ليس من معول كبير عليهما فى مجال السياسة، إنما المعول الأول على المكسب والفائدة..

ومنذ خمسين عاما تدبر الأحرار الدستوريون على زعيمهم محمد محمود فى هذا الشأن.. وذلك حين عرضوا اسم مهندس شاب نابغة ليكون وزيرا للمواصلات.. فقال محمد محمود إنى لا أستخف طله!! وكان جوابهم على قوله هو أن خفة الظل تأتى فى الصداقة والمصاهرة، ولا تأتى فى السياسة ولا الشئون العامة.. ونزل على رأيهم.. ومهما يكن من أمر فلرمضان عندى ذكريات أية ذكريات..

وقد نشأت فى أسرة ريفية متواضعة بإحدى قرى مركز المنصورة.. ومع أن أهلى قد انصرفوا عن العادة، إلا كما يؤديها العامة من أهل الريف، فقد ظهر استغراق فيها منذ طفولتى، استغراقا يدفعنى إلى الجد والعمل.. وكان لى فى والدى، الذى خصنى بقربه، أسوة حسنة.. وأذكر انى أقبلت على الصلاة أؤدى فروضها ونوافلها فى السابعة من عمرى، وأننى بدأت الصوم كذلك فى السنة ذاتها. بل أذكر أننى حين بلغت العاشرة كنت أحفظ ثلثى القرآن الكريم أو عشرين جزءا من أجزائه الثلاثين.. وكنت أصلى المغرب فى المسجد القريب من دارنا، ثم أستمر فى العبادة لا أبرحه حتى أصلى العشاء.. وأعود إلى الدار لأتعشى وأذاكر بعض الوقت.. ثم أنام لأستيقظ قبل الفجر، وأؤدى صلاته فى المسجد مع المصلين من أهل قريتى: بعض العجائز والعمال الفلاحين البكرين.. بل لقد شغفت برسول الله ﷺ، الذى طالما استمعت لوالدى يتلو دلائل خيراته وشاركته التلاوة.. وازداد شغفى بالرسول الكريم حين رأيته فى المنام.. وأخذت أفاخر بذلك لدانى: الصغار، وأبناء: الكبار..

وكان والدى قد سمانى: «السيد»، يتمنا بولى الله أحمد البدوى، الذى نطلق عليه نحن الريفيين اسم السيد البدوى.. وطالما قص الوالد علىّ أقاصيص كرامته وبطولته! وطالما زرته معه، وعدت من كل زيارة بقوة جديدة من السعادة والرضا، ومن الأمل الداعى إلى المزيد من العمل.. وفى الثانية عشرة رأيت فى المنام، أحمد البدوى، فى صورة شيخ

أنور السادات .. تقارب سوفيتي هندي

تحيل قصير القامة وضاح الجبين : يحملق ويرفعني بين يديه .. واستبشرت أعظم الخير بهذه الرؤيا ! !

وكان أول صوم لي حين وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها في نهاية العقد الثاني لهذا القرن .. وكان صوم اليقين بحق .. أسعد بالجوع والعطش واحتمالها طوال النهار .. وأسعد أكثر بالإفطار وبالسحور مع الكبار . مثنا بذلك مقدرتي على أن أكون مساويا لهم في الاحتمال .. وكانت المعاني الاجتماعية أجمل ما تكون في تلك الأيام .. ففي عدد مذكور من منازل القرية يجلس الفقيه في المنظرة . يتلو القرآن من بعد صلاة العشاء حتى موعد السحور .. وينتقل أهلها بين المناظر طوال هذه الفترة تأكيدا للروابط الوثقى . وتدارسا في شئونهم المشتركة . وحلا لما ينجم من مشاكل بينهم .. وفي أعوام الصوم الأولى غرست ممتطرتنا الميول السياسية في نفسي ..

■ لقد عانى المصريون في الحرب العالمية الأولى أعظم المعاناة .. وحين وضعت الحرب أوزارها كانت أنباؤها المؤلمة تملأ اسماعنا – نحن الأطفال – ومناظرها البشعة تملأ أبصارنا .. والمصريون في الريف والمدينة من أشد الشعوب ولعا بالسياسة وأحاديثها .. لقد أعلنوا يقصون علينا في تفصيل المآسي البريطانية ومشقات الحياة طوال السنوات الأربع للحرب .. اشتد العسف في تطبيق الأحكام العرفية البريطانية على مصر منذ أعلنت الحماية عليها في مطلع الحرب .. وخضع للاعتقال والسجن كل مصري يثبت ميله ضد بريطانيا .. واستولت السلطات البريطانية على غلات المصريين ودوابهم من الخيل والبغال والحمير . وسخرتها بلا مقابل لخدمة المجهود الحربي الأجنبي .. كما سخرت الفلاحين والعمال المصريين لخدمة أعمال القتال والمساندة الحربية ..

وهكذا حين كنت في سنوات صيامي الأول حيث اليقين الديني أخذت تساورني أسباب الشك الوطني .. إن ممتلكات الفلاحين من أهل قريتنا لم يعد أي منها إلى القرية بعد الحرب . ولم يتلق أصحابها أي تعويض عنها .. والفلاحون الأشداء الذين سخروا لخدمة الحرب البريطانية ضد الألمان والعثمانيين قد أعادت أنباء القتل والمفقودين منهم نذرى على القرية . كما أعاد العاجزون والمشوهون وفاقدو الأطراف يعودون إليها تباعا . ويغرسون في نفوس الشيوخ والشبان والأطفال . المزيد من النقمة والثورة على الاستعمار البريطاني . كما أخذت أنباء تأليف الوفد المصري والثورة الكبرى الإجماعية تشغل كل مصري وتستد بجميع حواسه ومشاعره .. وعلى طول أخذ عشر عاما ترسخت في نفوسنا وقلوبنا معاني الإيمان الديني

زعماء دعوة التفوق العسكري الأمريكي

والحماسة الوطنية

لكن الإنسان عالم صغير .. وهو مثل العالم الكبير حافل بالتحولات والتطورات .. ولهذا لم أكد أصل الثامنة عشرة من عمري . وأبدأ التعليم الجامعي . حتى واجهت شهر رمضان آخر مختلفا كل الاختلاف عن رمضانات السابقة ..

فحين دخلت الجامعة . إبان الفاقة الاقتصادية الخانقة في مصر وفي العالم كله . واجهتني أحاديث التحرر المطلق والشك والريبة والإلحاد .. وهي أحاديث كانت تسود مجتمعنا . وخاصة الجامعي . في مطلع الثلاثينات لهذا القرن .. ولم يكن مناص من تأثري بها وخاصة في تلك السن التي يتحول فيها الناشيء من مرحلة الصبا إلى الشباب ويبدأ عهد الرجولة بتكاليفها وأعبائها ..

وظللت تسعة أشهر من عام ١٩٣١ أعاني الضياع وفقدان العقيدة . أتوه في بيداء الشك الرهيبة . وأتوه بأوزار الحيرة النفسية .. وأبكي سعادة الإيمان واليقين الذاهبة .. وجاء رمضان الشهر العاشر في هذه المحنة .. فلم أصل ولم أصم .. بل تحديت المصلين الصائمين . وأخذت أدخن في الطرقات . ولم أكن أدخن من قبل .. بل بلغ التحدي أقصى المدى حين سرت في ميدان عابدين . مقر الحكم الإسلامي . أدخن وأعلن إفطاري .. لكن اشتداد المعارك هو دائما طليعة السلام ..

وكانت لي صلة وثيقة بأستاذ الفلسفة الإسلامية المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا .. وقد أصبح من بعد وزير الأوقاف ثم شيخ الجامع الأزهر الإمام الأكبر للمسلمين .. وزرته في ليلة الحادي عشر من رمضان بمنزله بمنشية البكري . بعد أن أكره الملك فاروق أسرة عبد الرازق على إخلاء دارها النيلية المطلة على قصر عابدين .. وطالعت أستاذي بأسباب الشك والريبة التي ترين على قلبي وعقلي معا .. وحدثني الفيلسوف الكبير حديث المؤمن الصادق والعالم الحجة . واتبع سبيل سقراط في توجيه الأسئلة وصولا إلى الاقناع بالحقيقة .. وسلمني نسخة من رسالة التوحيد لأستاذه المغفور له الإمام محمد عبده .. وطلب أن أقرأها . وأن أعود بعد سبعة أيام للمناقشة في موضوعاتها .. وبعد هذا اللقاء بدأت مرحلة العودة إلى سعادة الإيمان واليقين .. وقرأت الرسالة واستوعبتها في مدى يومين .. وتمنيت العودة إلى أستاذي في اليوم الثالث لأطالعه بما هداني الله إليه بفضله سبحانه وبفضل مصطفى عبد الرازق ومحمد عبده معا .. وبدأت الصيام والصلاة على قواعد أفضل وأصدق .. وتأكدت لي القولة السائرة : الشك أولى مراتب اليقين . كما تأكد لي رأي بعض الفقهاء المسلمين أن المؤمن . بغير نظر ولا تأمل يؤديان إلى توثيق الإيمان . يعتبر واهن العقيدة ..

وفي اليوم السابع ذهبت إلى دار المغفور له الإمام مصطفى عبد الرازق قبل الإفطار حسبما حدد لي . ووجدت جمعا من مريديه : شبابا وشيوخا .. وشربنا الشاي حين أذن المغرب .. وأمنا للصلاة .. ثم جلسنا على مائدته نتناول طعاما شهيا ونستمع إلى حديث أشهى .. كله الإيمان والعمل والثقة بالمستقبل الفردي والوطني .. وأدرك ما كان من أمري بغير حديث مني ولا منه .. ولم يزد على أن هنأني مما ألهاه الله عليّ من العودة إلى سبيل الرشاد حين كنت أودعه منصرفا من داره .. ومنذ تلك الفترة تحدد الإيمان بمفاهيمه في رأيي .. فالعبادات ليست مقصودة لذاتها . إنما هي السبيل إلى استقامة المعاملات . والإيمان الحق هو صدق القول والإخلاص في العمل والتضامن الاجتماعي .. ومن المنكر فهم الذين على أنه تسابيح وأذكار . أو زهد وكسل . أو تزمت وضيق أفق . أو اعتزاف بأية وساطة بين العبد وربه ..

واجتزت الامتحان الجامعي في ذلك العام بتفوق . مثلما أجتزت مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين . وعدت إلى الله بعد تفكير ونظر عميقين .. أعبده سبحانه في صدق وإخلاص . وأرى العمل المستقيم الثمر جوهر العبادة وأرفع مراتبها .. وأعوض ما فاتني من صلاة وصوم في مرحلة الضياع . وألتزم بها طوال حياتي .. لا يفوتني فرض في إقامتي . ولا في أسفاري الكثيرة غربا وشرقا .. ولا تطمئن نفسي . إنها كنت . إذا فاتني أداء صلاة في وقتها .. بل أشعر بالضيق والعسر إذا لم أصل الصبح في الفجر أو قبل طلوع الشمس على الأكثر .. أو لم أقرأ حزبا من القرآن الكريم في تحمن واستبصار كل صباح ..

بل إني أشعر بتيسير أموري وتعبيد طرقي . كلما أديت العبادات على وجهها الصحيح .. كما أشعر بأنني أواجه المشاكل والمتاعب ولا أحقق مقصدا كلما حال نوم أو عمل دون هذا الأداء ..

وعادت إليّ يقين الإيمان الأحلام السعيدة التي افتقدتها في مرحلة الارتياب .. والحق أن قصتي عجيبة مع الأحلام .. فهي عندي عالم آخر يسعدني ويشقيني بالليل .. ويجافي كل الجفاء مسلكي في عالم النهار . حيث تحكمني مبادىء علم النفس وسائر العلوم المعاصرة . وأمارس الأمور بأسلوب الواقع العملي ..

ومن غرائب الأحلام مارأيته في رمضان (١٩٣٢) .. وكنت حينذاك لا أعرف غير محيط الجامعة العلمي . ولا صلة لي من قريب أو بعيد برجال الحكم والسياسة .. فقد رأيت في المنام أني أعمل مديرا لمكتب وزير المعارف (التربية) الدكتور محمد بهي الدين بركات .. ولم أكن أعرف الرجل ولم أره من قبل ذلك .. لكن هذا الحلم تحقق مع الدكتور محمد حسين هيكل بعد ستة أعوام .. وقد عرفته صدفة على أثر تخرجي .. وعملت معه طوال عشرين عاما في إخراج كتبه التي اعتز بها الدين – وأخرجت الكثيرين من ظلمات الشك إلى نور اليقين . وهي : حياة محمد . والصديق أبو بكر . والفاروق عمر . فقد خاطبت هذا الآثار الخالدة العقل بأسلوب علمي أمين .. وجاءت في مرحلة عز فيها هذا الأسلوب في مجال الدين .. وكان الدكتور هيكل بهذا بهي الدين مسمى لا اسما . كما كان بهي الدين بركات صديقه وقد عرفته عن طريقه ..

لكن أحاديث رمضان وذكرياته لم تنته .. وإلى الأسبوع المقبل إن شاء الله ..